يوم الوداع

في صباح يوم شتائي عصيب .. يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من نوفمبر تخيلتنا شجرة اقتلع جذرها الذي كان يغذينا بالحياة، وبراعمها لا تزل بحاجة لمزيد من قطرات السماء .. صار والدي يتيم المشاعر وصرت اشعر بالمسئولية تجاه الجميع .. في ذاك اليوم الشتائي الممطر .. يوم تشييع جثمان جدتي .. والدي افتقد درة حياته وصلة رزقه بالسماء .. اليوم يائس كأشجار الخريف .. المشاعر بدت كأحطاب غابة جمدها الجليد .. أخذت أرقب الوجوه الشاحبة القادمة الينا للتعازي كلهم كانوا من أقرب المقربين .. النساء تصرخن والرجال مطرقو رؤوسهم دامعين .. الجميع اصطفوا في صالة منزلنا التي اتسعت لكل الوافدين يتوسطهم والدي الذي عرفته من خلال عينيه الدامعتين بأنه الوحيد الذي بدا شارداً لا يعرف خياله وجهةً .. وددت حينها لو اكتب الكثير من الكلمات لكن يدي بدت عاجزة كعرجون نخل يابس .. وددت لو ابكي لكن الحزن تحجر في قلبي وتسمر الدمع في عيني .. عقلي يقول أن البكاء ينسي وأنا لا أريد النسيان .. تلك اللحظة فصلت بين الميلاد والموت وكأنهما حدثا في ظرف ساعة .. في عمق تلك اللحظة الفارقة الواعظة أخذت انظر للوجوه واتأملها بعجب ..

لماذا يصرخون؟ .. إذا كان فراق جدتي ألهب قلوبهم لوعة وحسرة فلماذا لا يرفعون ايديهم للسماء من أجلها ويدعون؟ .. جاءت السيدة المكلفة بتغسيل الموتى .. نهرت النساء وزعقت فيهن فصمتن جميعهن وكففن الدموع .. السماء انهمرت بالسيول وهذه دلالة على الرحمة .. واندفع المشيعون نحو الشارع يدفعون طاولة عليها جسد جدتي .. زجوها في سيارة ضخمة كتب عليها سيارة تكريم الإنسان تتبعتها سيارة إسعاف وعشرات السيارات التي سارت خلفهم تحمل المشيعين نحو البلدة حيث مقبرة جدتي .. إنها بلدتها التي ولدت فيها وترعرعت وافتقدت والدها وتيتمت .. والدها الشيخ المقام له ضريح ولأجله تحتفل البلدة بذكرى وفاته كل عام .. جدتي لم تكف يوماً في حياتها عن التنويه إلى معانتها في طفولتها اليتيمة .. كانت حياة جدتي بعد رحيل والدها كما وصفتها على لسانها جمرة من الجحيم .. وفي النافذة وقفت لألقي عليها الوداع الأخير .. ودعتها بدعوة .. ولم يكن بإمكاني تقبيل وجهها كما فعلت النسوة .. وذهبت جدتي لترقد بجوار والدها من جديد.